

أَخْلَاقُ الْوَزِيرِينَ

« مَثَالِبُ الْوَزِيرِينَ الصَّالِحِينَ بِنِ عِبَادِ وَابْنِ الْعَمِيدِ »

تأليف

أبي حيان علي بن محمد التوحيدي

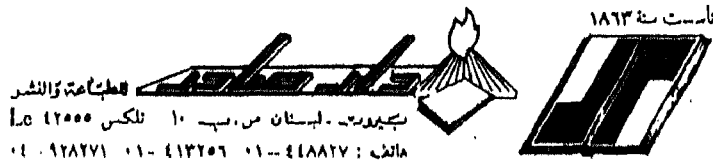
حققه وعلق حواشيه

محمد بن تاويبه الطنجي

دارصادر
بيروت

جميع الحقوق محفوظة
١٩٩٢م - ١٤١٢هـ

طبع بإذن من المجمع العلمي العربي بدمشق
رقم ٥٠٤/ص بتاريخ ١٢/٨/١٩٩١



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



كتاب

أخلاق الصاحب وابن العميد

ترجع صلتني بهذا الكتاب إلى أوائل شهر ديسمبر من مهنة ١٩٥٣ م ،
فقد زرت صديقي الكريم السيد عزيز بَرَكَر المدير العام إذ ذاك للمكتبات
بتركيا ، ورجوته أن يُطِيعني على فهرس مكتبة « أسعد أفندي » باستانبول ،
لأخرج منه رقماً لكتاب كنتُ بحاجة إلى إحضاره من استانبول إلى أنقرة
للاطلاع عليه .

وَبقي الفهرسُ بعد ذلك في يدي أتصفّحه ، ولقّنتني عنوان كتاب في أول
المجموعة رقم ٣٥٤٢ ، كُتب هكذا « الصداقة أو الصديق » وكُتب اسم المؤلف
تحتَه هكذا : « أبو حياث الأندلس » ، ثم يليه عنوان بهذه الصورة : « في
العلوم » « كذا » إشارة إلى الكتاب أيضاً للمؤلف نفسه .

وعلى الرغم من هذا التصحيف الواضح ، فقد كان ظني قوياً بأنني أمام
نسخةٍ خطيةٍ من « الصداقة والصديق » ، ومن « رسالة العلوم » لأبي
حيان التوحيدي .

لقد اختار أبو حيان للتعبير عن مضمون هذه الرسالة كلمة « أخلاق » ؛ والسبب الذي دعاه أن يسلك مسلك الحذر والاحتياط ، ويختار هذا العنوان لرسالته دون غيره ، في مجالسه الخاصة — حيث يُناجي أولئك الذين يطمئن إليهم ويأتمنئهم على أحاديثه — لا يزال قائماً ، وبصفةٍ أخطرٍ وأدعى للاحتياط والخوف ، عندما يُذيع كتابه ويعرضه على الجماهير ، وفيهم العدو المتربص ، والחסود الذي لا يرحم .

وكلمة « أخلاق » — بعد — هي التي تتسع للخطبة التي رسم حدودها في مقدمة كتابه هذا ؛ فلم يقتصر في أحاديثه عن الوزيرين ، وهذه عبارته : « على ما كان طالباً لمتبها ، وداعياً إلى الزرابة عليهما ، وباعتنا على سوء القول والاعتقاد فيها »^(١) ، بل أضف إلى هذه الأحاديث — وهذا قوله أيضاً : « ما شاع من فضائل لم يثلثهما فيها أحدٌ في زمانها ولا كثيرٌ ممن تقدّمها »^(٢) . ومن هنا جاء حديثه عن الكرم والثوم في أخلاقها ، والنقص والزيادة ، والورع والانسلاخ ، والرزانة والسُخف ، والكيس والبله ، والشجاعة والألجن ، والوفاء والقدر ، والسياسة والإهمال ، والاستعفاف والنطف ، والدهاء والغفلة ، والبيان والعي ، والرّشاد والنّي ، والخطأ والصواب ، والحلم والسفه ، والخلاعة والتماسك ، والحياء والقحة ، والرحمة والقسوة^(٣) .

وسواء وقى أبو حيان بخطته هذه أو لم يفعل ، فإنه يُريد ، في إصرار ،

(١) الأخلاق ١٣ ، والنظر الإمتاع ٥٤/١ .

(٢) الأخلاق ٩ - ١٠ .

أن يظهر بمظهر الوفيِّ لها ، وأن عمّله في هذا الكتاب سار على هذا النهج .
وأبو حيّان بعدَ هذا لم يكن من الجرأة ومناعة الجانب — وإن أعجبه ،
حين يكون بنجوة من الخطر ، أن يتظاهر بمظهر الشجاع الذي لا يقيم لخصمه
أيّ وزن — بحيث يتحدى الوزيرين وأشياعهما ، فيسمي كتابه « مثالب »
أو « ثلب » أو « ذم الوزيرين » كما حلا للناس أن يسموه فيما بعد ، بل إنه
— بعد أن اختار لكتابه هذا العنوان الذي يَسع المجال فيه للثناء بالخير وبالشر
معاً — بلَغ من جزّعه أن أخفاه عن الأعين ^(١) ، واحتفظ به في مسودته عنده ،
واعتذر للوزير ابن سعدان — حين طلبه منه — بأنه لا جسارة له على تحريره ،
وبأن جانب الصاحب مهيب ، ومكره له ديب ، وتمثّل له بقول الأول :
إلى أن يغيبَ المرءُ يُرحى ويتقى ولا يعلم الإنسان ما في المغيّب ^(٢)
وحين استسلم لوعيد أبي الوفاء البوزجاني ، وقدم له كتابه « الإمتاع » ،
وفيه ، كما يقول أبو حيّان : « ما يشيط الدم المحمّون ، ويُزَع من أجله الروح
العزير ، ويُستصمّر معه الصلب ، ولا يُقنع فيه بالعذاب الأذى دون العذاب
الأكبر » ^(٣) ، كان أيضاً خائفاً يترقبُ ما لعله أن يلحقه من أذى لو اطلع
الناس على ما في كتابه .

ولهذا جهد ، ما سمعته الخيلة ، في تبرير أقواله وأحكامه على الوزيرين
وغيرهما في كتابه ؛ فالتوى في نقده ، واحتجّ له بأن أناساً قبله هَجّوا وتَلَبّوا

(١) الأخلاق ٥٥/٥٤/٥٠ .

(٢) الإمتاع ٥٤/١ .

(٣) الإمتاع ١٣/١ .

وربما كانت ياقوت الحموي (٥٧٥ - ٦٢٦ هـ)^(١) أول من نظر إلى أبي حيان نظرة متأنية ، اتضحت له معها شخصيته وعلمه وأدبه ، فعجب من إهمال المؤرخين له^(٢) ، مع ما له من المنزلة الرفيعة التي أطلعها عليها تقصيه لأحواله ، وقراءته المنظمة لكتبه .

وكان عناية ياقوت باقتناء الكتب والاطلاع عليها ، على اختلاف مذاهب مؤلفيها ومشاربهم ، واشتغاله بالنسخ ، لغيره مقابل أجر^(٣) ، — قد مكّنه كل ذلك من أن يحصل على مجموعة من مؤلفات أبي حيان^(٤) ، ويستخرج له منها ترجمة واسعة ضمنها كتابه « إرشاد الأريب » .

وحينما نقل ياقوت عن كتابنا هذا ، وقد كرّر النقل عنه ، أورده بأسماء مختلفة ؛ ذكره باسم « أخلاق الوزيرين » في أربعة مواضع من الإرشاد^(٥) ، وباسم كتاب « الوزيرين » في ثمانية مواضع منه^(٦) ، وباسم « مثالب » في

(١) الوفيات ٢/٢٥٤ .

(٢) الإرشاد ٥/٣٨١ .

(٣) الوفيات ٢/٢٧٨ .

(٤) كان بين يديه منها : كتاب الأخلاق وقد نقل عنه أزيد من أربع عشرة مرة في كتابه الإرشاد . وكتاب محاضرات الملأ (الإرشاد ١/١٥) ، ٢/٣١٤ ، ٣/٨٧ ، ٦/٤٦٦) . وكتاب تقرّظ الجاحظ وكان بخط أبي حيان (الإرشاد ١/١٢٤ ، ١٤١ ، ٣/٨٦ ، ٦/٥٨ ، ٩٦) . وكتاب الصداقة والصديق (الإرشاد ٥/٣٨١) . والبصائر والذخائر (الإرشاد ١/١٤٨) .

(٥) ٢/٢٧٣ ، ٢٨١ ، ٥/٣٩٢ ، ٤٠٤ .

(٦) ١/٢٨١ ، ٢/٤٤ ، ٩٥ ، ٢/٢٧٣ ، ٥/١٥٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٩٢ .

موضع واحد^(١) ، وباسم « ذم الوزيرين » في موضع واحد أيضاً^(٢) .
وفي هذه المواضع جميعاً ، لم يقل ياقوت ، ولو مرة واحدة : إن أبا حيان
سَمَّى كتابه^(٣) هذا بأحد الأسماء التي ذَكَرَها بها ، ويجب أن لا يبقى هنا مجال
لاحتمال أن يكون الكتاب قد سمي بها جميعاً .

وبناء عليه ، فالتفسير الذي نراه لصنيع ياقوت هذا ، هو أنه استطال
العنوان الذي على ظهر المخطوطة ، والذي قدَرنا أن أبا حيان وضعه علماً
لكتابهِ ، فتصرّف فيه طلباً للاختصار ، وأخذ اسم الكتاب من الموضوع
الذي يتناوله .

وهو تغييرٌ لا يفرضه على ياقوت ، بل نستفيدة من عمله في أسماء كتب
أخرى ؛ فقد استطال أو استقل اسم : « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » ،
وهو الاسم الذي سمي به كتابه^(٤) ، فأحال عليه في كتابه « معجم البلدان »
باسم « معجم الأديب »^(٥) مرة ، وباسم « أخبار الأديب »^(٦) مرة ثانية ، وباسم
« كتاب الأديب »^(٧) مرة ثالثة . هذا صنيع ياقوت في كتابه .

(١) الإرشاد ٣٨٠/٥ .

(٢) الإرشاد ٣٨٢/٥ .

(٣) وقد أخطأ ابن شاکر (عيون التواريخ سنة ٣٨٠) حيث نسب لياقوت
أنه قال : إن أبا حيان سَمَّى كتابه مثالب الوزيرين .

(٤) الإرشاد ١٣/١ .

(٥) معجم البلدان ٢٨٩/٦ .

(٦) معجم البلدان ٢٨٩/٥ .

(٧) معجم البلدان ١٧٧/٦ .

ولعل هذين المثالين كافيان للدلالة على أن ابن خلكان أفقد كلمة « سمي »
هذه دلالتها المعروفة .

* * *

ولم يُخفِ أبو حيان الأسباب التي دفعت به في غير شفقةٍ إلى تأليف كتاب
الأخلاق هذا ؛ فقد فارق أعرته ببغداد ، وهجر أهله وإخوانه بها ، وقصد صاحب
البرقي ، آملاً أن ينال ببابه ما كان طمعه ينددن حوله ، ونفسه تحمل به ، وأمله
يطمئن إليه ^(١) ، فخيّب صاحب أمّله ، وأساء معاملته ، فتجرد أبو حيان للانتقام .
ولقد أجاد في تصوير المأساة وحدثها بقوله : « ابتليت به وابتلي بي ، رماني
عن قوسه مُفْرِقاً . فأفرغت ما كان عندي على رأسه مَغِيظاً ، وحرمني فازدريته ،
وحقرني فأخزيتهُ ، وخصني بالخيبة التي نالت مني ، فخصصته بالغبية التي أحرقتهُ ،
والبادي أظلم ، والمنصف أعذر . . . ولئن لم يرني أهلاً لنائله وبره ، إني لا أراه
أهلاً لقول الحق فيه ، ونث ما كان يشتمل عليه من مخازبه ^(٢) » .

« . . . وتابّع المكروه من جهته ، وتعقّبني بالشر ، ومتى وجد غرّةً اهتبلها ،
ولما رأى فرصةً اتهرّها ، ولم يرض حتى حسر عن الذراع يداً ، فكشف القناع ،
وجرد العداوة ، وأظهر التسلط والتغلب ، ففاضت النفس بعد امتلائها ^(٣) » .

« ولما نالني هذا الحرمان الذي قصّدي به وأحفظني عليه . . . أخذت أتلافُ

(١) الأخلاق ٨٥ .

(٢) الأخلاق ٨٦ ، ٨٧ .

(٣) الأخلاق ٥٠ .

ذلك بِصِدْقِ القَوْلِ عَنْهُ فِي سُوءِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ .والبادي أَظْلَمُ^(١) .

ومات الصّاحِبُ ، وَجُرْحُ أَبِي حَيَّانِ الدَّامِي لَمْ يَنْدَمَلْ ، وَثَأْنُهُ لَمْ تَهْدَأْ ، فَهُوَ لَا يَزَالُ يَقُولُ : « وَلَئِنْ كَانَ مَنْعِي مَالَهُ الَّذِي لَمْ يَبْقَ لَهُ ، فَمَا حَظَرَ عَلِيٌّ عِرْضَهُ الَّذِي بَقِيَ بَعْدَهُ^(٢) » .

فهذا هو السبب المباثر لهذه الخصومة التي سجّلها أبو حيان في كتابه هذا ، وهو سبب كافٍ على حدّته لإنشائها ولإذكاؤها معاً .

فما دام الصّاحِبُ ابن عبّاد ، وأبو حيان التّوحيدي ، كل منهما إنسان له من الصفات البشريّة السيّئة منها والحسن ، يُخطيء في سلوكه مع الناس ويصيب ، فإن جرمان الصّاحِبِ أبا حيان ، وثورة أبي حيان عليه وثلبه في مقابل ذلك ، جارٍ على الجراي المألوف للحوادث ، وليس فيه شذوذٌ يحتاج إلى التوجيه وإقامة المَعذرة فيه .

والحياة اليوم . وكذلك كانت بالأمس ، تُمدّنا بصورة مستمرّة ، بالنماذج التي لا يلحقها العتّة ، لطالاب الرزق بمختلف وسائلهم ، ولآلاف أخرى ممن يمتحنهم القدر فيضعهم على أبواب الرزق ، فيمنحون ويمنعون ، حسب ما شاء لهم هواهم أن يفعلوا ، فيلتهج الممنوح — صادقاً وكاذباً — بالثناء ، وينقلب المحروم ناراً محرقة تأتي على اليابس والأخضر .

ومقارنةً سريعةً بين بعض صفات الصّاحِبِ وأبي حيان ، وتقديرُ

(١) الأخلاق ٣١١ .

(٢) الأخلاق ٨٧ .

ثم عاد فنقده ؛ واتخذ من قصة مقتله وسيلة لأن يعيد الكرة على صاحب وينال منه بعد أن كان فرغ منه .

وهكذا شمل الحديث في كتاب « الأخلاق » ثلاثة من الوزراء .

وحين ذكر أبو حيان للوزير ابن سعدان تلك الخلاصة الموجزة عن كتاب « الأخلاق » هذا في « الإمتاع » اختصر الكلام اختصاراً أحلّ بنظمه ، فظن بعض دارسي أبي حيان من المعاصرين أن ثاني الوزيرين هو أبو الفتح لا أبو الفضل .

وهو ظنٌ يكشف عن خطئه كتاب الأخلاق نفسه .

* * *

ونسخة كتاب « أخلاق صاحب وابن العميد » وحيدة فيما نعلم ، والاعتماد عليها وحدها عند نشره يُعرض الناشر إلى كثير من الضرر .

ومن هنا أحسست بالحاجة إلى الاستعانة بالمطابق والمراجع التي رأيت أن الاستعانة بها من شأنها أن تعود على هذا النصّ بالتأييد والتقوية ، وأن تشعر القارىء بنوع من الاطمئنان على سلامة النص ، فاستنجدت بما أمكنني أن ألقا إليه من كتب مخطوطة ومطبوعة ، وأظنني لم أرجع خائباً فيما رجوته منها .

وعليّ هنا أن أتقدم للمجمع العلمي العربي بـرجاء قبول عذري عن تأخري
زمنًا طويلًا دون إنجاز العمل في هذا الكتاب ، وأن أسجل له شكري الخالص
على تفضله بطبعه ضمن نشرياته .

وقد بذتُ جهدي ، وعساني أصبتُ أو قاربت . فإن أخطأت
فله وحده صفة الكمال .

محمد بن تاويف الطنجي

الرباط ٨/٦/١٩٦٥ م